نفير طلبة العلم

لفضيلة الشيخ:
أبي عمر محمد عبدالله السيف
تقبله الله



Al-Battar Media Foundation

نفير طلبة العلم

لفضيلة الشيخ المجاهد

أبي عمر محمد بن عبدالله السيف

تقبله الله


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على إمام المجاهدين؛ نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد.

فإن الحرب الصليبية الجديدة على الإسلام و المسلمين قد تداعى لها الكفار؛ من نصارى و يهود و هندوس و غيرهم من ملل الكفر، و من تابعهم من الأنظمة المرتدة عن الإسلام إلى العلمانية، و المنافقين.

وهي حرب وصفها البعض بأنها حرب عالمية ثالثة؛ لضخامتها، واتساع ساحة المواجهة فيها، وكثرة المسارعين إليها.

فقد أصبحت الصحوة الإسلامية قوة تقض مضاجع الكافرين؛ حيث تجاوزت مرحلة القلة و الضعف، وهي اليوم قوة حقيقية تواجه المعتدين في فلسطين والعراق وأفغانستان والشيشان وكشمير وغيرها.

كما أصبحت أحداثها العظام، ومعاركها الجريئة والشرسة مع أقوى دول الكفر في العالم: شغل العالم الأكبر في وسائل الإعلام العالمية المتنوعة.

وعلى الرغم من هذا التحالف من رؤوس الكفر على حرب الإسلام؛ فإن النصر سوف يكون هو العاقبة بإذن الله التي يظفر بها المجاهدون إذا حققوا الإيمان والعمل الصالح كما قال تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ

خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ النور: ٥٥ فالصحابة رضي الله عنهم حققوا الإيمان التام، والعمل الصالح التام؛ فحصل لهم التمكين التام في الأرض، وحين قصر كثير من المسلمين في القرون المتأخرة في الإيمان و العمل الصالح: نقص تمكينهم في الأرض بحسب ما نقص من إيمانهم و أعمالهم الصالحة.

ومن التقصير في هذه السنوات الحاسمة من تاريخ الأمة: ندرة طلبة العلم بين المجاهدين النافرين إلى ساحات الجهاد.

فإن أي جهاد يقام في بلد من البلاد؛ يحتاج إلى طلبة العلم الذين يوجهون مسيرة الجهاد، ويوحدون الصفوف، ويعلمون الناس دينهم، ويقومون بواجب الدعوة والتبليغ، و يخاطبون الأمة عن القضية التي نفروا للدفاع عنها، ويحرضون المسلمين على نصرة إخوانهم بالنفس و المال.

وهذا التقصير في نفير من تحصل بهم الكفاية من أهل العلم: من الظواهر التي لها أبعادها الخطيرة على الأمة، مع كون هذه الظاهرة إخلالا في صفة من أبرز صفات الطائفة الناجية المنصورة أهل السنة والجماعة، وهي القتال في سبيل الله؛ فعن جابر بن عبدالله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : " لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق، ظاهرين إلى يوم القيامة " أخرجه مسلم.

وعن جابر بن سمرة عن النبي ﷺ أنه قال: " لن يبرح هذا الدين قائما، يقاتل عليه عصابة من المسلمين، حتى تقوم الساعة " أخرجه مسلم.

وعن معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ : " من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين، ولا تزال عصابة من المسلمين يقاتلون على الحق، ظاهرين على من ناوأهم إلى يوم القيامة " أخرجه مسلم.

وعن عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: "لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على أمر الله، قاهرين لعدوهم، لا يضرهم من خالفهم، حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك " أخرجه مسلم.

فقد صرح النبي ﷺ بأنهم يقاتلون بأنفسهم، ولم يقل بأنهم كانوا يقتصرون على الدعوة إلى الجهاد، والتحريض عليه، وكتابة الكتب في فضائله ووجوبه، بل يقومون بواجب التحريض مع الجهاد بالنفس والمال.

وإن تسليط الذل على الأمة عقوبة من الله تعالى لتركها الجهاد في سبيل الله، ولا ترفع عنها هذه العقوبة إلا بالعودة إلى الجهاد في سبيل الله، كما قال ﷺ : " إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد: سلط الله عليكم ذلا لا ينزعه عنكم حتى ترجعوا إلى دينكم " أخرجه أحمد وأبو داود.

وينبغي أن يكون طلبة العلم السابقين في الرجوع إلى فريضة الجهاد وتجديدها، وأن يقودوا الشباب المجاهد، ويتقدموا الصفوف في أرض النزال، ولا يكونوا ممن طال عليهم الأمد فقست قلوبهم، فلا يتعظون بموعظة، ولا ينتفعون بذكرى، قال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ

فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ الحديد: ١٦ - ١٧

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ :(ففي ذكره تعالى لهذه الآية بعد التي قبلها: تنبيه على أنه تعالى كما يحيي الأرض بعد موتها؛ كذلك يلين القلوب بالإيمان والهدى بعد قسوتها من الذنوب والمعاصي).

وقال تعالى : ﴿ أَوَلَا يَرَوۡنَ أَنَّهُمۡ يُفۡتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٖ مَّرَّةً أَوۡ مَرَّتَيۡنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴾ التوبة: ١٢٦ أي يُختبرون بالغزو والجهاد في العام الواحد مرة أومرتين كما في أحد الأقوال في الآية، وما تعدد الجبهات، وكثرة الحروب والمواجهات مع الصليبيين واليهود والمرتدين في أكثر من بلد في هذا الوقت: إلاّ ابتلاءٌ واختبار لطلبة العلم وغيرهم؛ لتمييز الصادقين من الكاذبين.

فلم يكن الصحابة تسطَّر لهم الكتب الكبيرة، ولا الرسائل الكثيرة لتحريضهم على الجهاد، بل كانت الكلمات القليلة كافية لتستجيب لها القلوب الصادقة اللينة الحية، فعن أبي بكر بن أبي موسى الأشعري قال : سمعت أبي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وهو بحضرة العدو يقول : قال رسول الله ﷺ : " إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف"، فقام رجل رث الهيئة، فقال: يا أبا موسى؛ أأنت سمعت رسول الله ﷺ يقول هذا ؟ قال : نعم، فرجع إلى أصحابه فقال : أقرأ عليكم السلام، ثم كسر جفن سيفه فألقاه، ثم مشى بسيفه إلى العدو فضرب به حتى قتل. رواه مسلم.

وفي يوم بدر قال ﷺ : " قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض " فقال عمير بن الحمام رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ : يا رسول الله؛ جنة عرضها السماوات والأرض ؟!

قال : " نعم "، قال : بخ بخ. فقال رسول الله ﷺ : " ما يحملك على قولك : بخ بخ؟ " فقال: لا والله يا رسول الله إلا رجاءة أن أكون من أهلها، قال : " فإنك من أهلها "، فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منها، ثم قال : لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة، فرمى بما معه من التمر ثم قاتلهم حتى قتل. رواه مسلم.

كما أن نفير طلبة العلم إلى أرض الجهاد وخصوصا إلى العراق: تحتمه حاجة المجاهدين في العراق إلى أهل العلم الذين يسعون لوحدة الكلمة، وإلى اختيار حاكم مسلم للعراق ممن توفرت فيه شروط الإمامة، ويتم اختياره عن طريق أهل الحل والعقد من قادة الجهاد، والعلماء المجاهدين، ولا يدخل المنافقون أو القاعدون عن الجهاد في أهل الحل والعقد؛ فإن النبي ﷺ لم يولّ على المسلمين منافقا أو قاعدا عن الجهاد الواجب.

فلا يجوز للمجاهدين أن يبقوا بلا إمام يقودهم بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ، فإن هذا الخطأ الكبير .وهو خلو العراق من حاكم مسلم .إذا لم يتدارك فسوف يساعد الأمريكان في تنفيذ مخططاتهم بتنصيب حاكم عميل على العراق.

وهذه الرسالة سوف يذكر فيها فصلان :

الأول : في صفات أهل العلم.

والثاني : في المعوقات عن النفير.

نسأل الله تعالى أن ينفع بها نكتب الإسلام والمسلمين.



صفات أهل العلم

الصفة الأولى : العمل بالعلم

من صفات طالب العلم انتفاعه بالعلم، واستجابته لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فهو يسعى جاهدا أن يتخلق بأخلاق القرآن، ويتأدب بآدابه، ويقوم بها أمره الله حق القيام، وأن يجاهد في سبيل الله كما أمره الله تعالى في كتابه في قوله تعالى: ﴿ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴾ التوبة: ٢٩ وغيرها من الآيات.

فالعمل بالعلم هو الهداية إلى الصراط المستقيم التي يسألها العبد في صلاته في قوله تعالى : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾فيسأل العبد ربه تعالى أن يهديه الطريق المستقيم، وهو العلم بدين الله تعالى والعمل بالعلم، وهو صراط﴿ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ ﴾ غير صراط المغضوب عليهم؛ وهم الذين علموا الحق ولم يعملوا به كاليهود، ولا الضالين الذين ضلوا عن العلم فهم في ضلالهم يعمهون كالنصارى، وقد **قال سفيان بن عيينة** :(كانوا يقولون : من فسد من علمائنا: ففيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبّادنا: ففيه شبه من النصارى).

وقد بين الله تعالى بأن أهل الهداية المذكورين في سورة الفاتحة هم الذين يعملون بما يوعظون به من العلم، ويطيعون الله تعالى ورسوله ﷺ، وأنهم رفقاء في الجنة مع الذين أنعم الله عليهم من النبين، والصديقين، والشهداء، والصالحين، فقال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّـَٔاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ النساء: ٦٦ – ٦٩

فالعلم حجة لطالب العلم إذا عمل به، أوحجة عليه إذا قصر. فيما أوجب الله عليه واتخذ العلم ذريعة إلى الرياء، والسمعة، وطلب ا لدنيا، وقد قال ﷺ : " إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه: رجل استشهد فأتى به، فعرّفه نعمته فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت، فقال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال: هو جريء، فقد قيل، ثم أمر به، فسحب على وجهه حتى ألقي في النار. ورجل تعلم العلم وعلمه، وقرأ القرآن، فأتي به، فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها ؟ قال: تعلمت العلم، وعلمته، وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمت ليقال : عالم، وقرأت ليقال : هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به، فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل وسع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها ؟ قال : ماتركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال : كذبت، ولكنك فعلت ليقال : هو جواد فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار " رواه مسلم.

والرياء قد يخفى على بعض طلبة العلم؛ فيظن أحدهم أنه مخلص في طلبه للعلم، وقلبه منطوٍ على طلب المكانة والعلو في الأرض، وثناء الناس عليه بالعلم والحفظ، ولو فتش قلبه لوجد هذا الداء كامناً فيه، ومن أمارة ذلك: أن طالب العلم لو كان صادقا في طلب مرضاة الله تعالى لما أعرض عن الأعمال العظيمة التي ينال بها رضى الله تعالى؛ كنصرة الإسلام، والجهاد في سبيل الله، وأقبل على الحفظ والدراسة المجردة من الجهاد والعمل.

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : قال رسول الله ﷺ : " من تعلم علما مما يبتغى به وجه الله تعالى لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضا من الدنيا؛ لم يجد عرف الجنة يوم القيامة يعني ريحها " رواه أبو داود.

وقال ﷺ : " لا تعلموا العلم لتباهوا به العلماء، ولا تماروا به السفهاء، ولا تخيروا به المجالس، فمن فعل ذلك فالنار النار " أخرجه ابن ماجه وابن حبان.

وفيه تحذير من المباهاة في العلم، والرياء، وطلب المكانة، والرفعة بين الناس، والتصدر في المجالس.

وعن زيد بن أرقم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ كان يقول : "اللّهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها" رواه مسلم.

وقال رسول الله ﷺ : " ما تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع : عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن علمه ماذا عمل به" رواه والترمذي البيهقي وغيرهما.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ :(فمن عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم، كما قال تعالى : " **والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم** " وقال تعالى : " **ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا، وإذا لآتيناهم من لدنا أجرا عظيما ولهديناهم صراطا مستقيما** "، وقال تعالى : " **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم** " وقال تعالى : " **قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم** " وشواهد هذا كثيرة من الكتاب والسنة.

وكذلك من أعرض عن اتباع الحق الذي يعلمه تبعا لهواه؛ فإن ذلك يورثه الجهل والضلال حتى يعمى قلبه عن الحق الواضح، كما قال تعالى : " **فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين** " وقال تعالى : " **في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا** "، وقوله تعالى : " **وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها، قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاء ت لا يؤمنون. ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون** "، ولهذا كان يكثر في كلام مشايخ الدين وأئمته ذكر الصدق والإخلاص حتى يقولوا : قل لمن لا يصدق لا يتبعني، ويقولوا : الصدق

سيف الله في الأرض، وما وضع على شيء إلا قطعه، ويقول يوسف بن أسباط وغيره : ما صدق الله عبد إلا صنع له.

والصدق والإخلاص هما في الحقيقة تحقيق الإيمان والإسلام، فإن المظهرين الإسلام ينقسمون إلى مؤمن ومنافق، والفارق بين المؤمن والمنافق هو الصدق، فإن أساس النفاق الذي يبنى عليه هو الكذب، ولهذا إذا ذكر الله حقيقة الإيمان نعته بالصدق، كما في قوله تعالى: " **قالت الأعراب : آمنا، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا، ولما يدخل الإيمان في قلوبكم وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئا، إن الله غفور رحيم إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم قي سبيل الله أولئك هم الصادقون** "، وقال تعالى: " **للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون** "

فأخبر أن الصادقين في دعوى الإيمان هم المؤمنون الذين لم يتعقب إيمانهم ريبة، وجاهدوا في سبيله بأموالهم وأنفسهم، وذلك أن ذلك هو العهد المأخوذ على الأولين والآخرين كما قال تعالى : " **وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين** " وقال تعالى : " **لقد أ رسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز** ".

فذكر تعالى أنه أنزل الكتاب والميزان، وأنه أنزل الحديد لأجل القيام بالقسط، وليعلم الله من ينصره ورسله، ولهذا كان قوام الدين : بكتاب يهدي، وسيف ينصر. وكفى بربك هاديا ونصيرا.

ومما ينبغي أن يعرف أن الصدق والتصديق يكون في الأقوال وفي الأعمال؛ ولهذا يريدون بالصادق : الصادق في إرادته، وقصده، وطلبه، وهو الصادق في عمله، ويريدون الصادق في خبره وكلامه، والمنافق ضد المؤمن الصادق، وهو الذي يكون كاذبا في خبره، وكاذبا في عمله كالمرائي في عمله) مع الاختصار.

وقد شبه الله تعالى حامل العلم الذي لم يعمل بعلمه، ولم ينتفع به: بالحمار والكلب؛ فقال تعالى :﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ الجمعة: ٥ فذكر الله تعالى في هذه الآية بأن مثل الذين حملوا التوراة، فحفظوا ألفاظها، ولم يتدبروها، ويعملوا بما فيها؛ كمثل الحمار يحمل أسفارا، أي كتبا، ولا ينتفع بها، فكذلك الذي حفظ القرآن، ودرسه ولم يعمل بما فيه، ولم يقم حدوده، ويجاهد في نصرته: يرتكس من منزلة أئمة الهدى ورثة الأنبياء، إلى مماثلة الحمار الذي يحمل كتبا لا ينتفع بها.

قال ابن كثير رحمه الله :(يقول تعالى ذاما لليهود الذين أعطوا التوراة وحملوها للعمل بها، ثم لم يعملوا بها: مثلهم في ذلك كمثل الحمار يحمل أسفارا، أي كمثل الحمار إذا حمل كتبا لا يدري ما فيها، فهو يحملها حملا حسيا، لا يدري ما عليه، وكذلك هؤلاء في

حملهم الكتاب الذي أوتوه حفظوه لفظا، ولم يتفهموه ولا عملوا بمقتضاه، بل أولوه، وحرفوه، وبدلوه).

قال ابن جريج : (أمرهم أن يأخذوا بما فيه فلم يعملوا به).

وقال الضحاك :(كتبا لا يدري ما فيها ولا يدري ما هي يضرب الله لهذه الأمة، أي وأنتم إن لم تعملوا بهذا الكتاب كان مثلكم كمثلهم).

وقال تعالى ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴾ الأعراف: ١٧٦ – ١٧٧

يأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يتلو نبأ الذي أوتي آيات الله، وعلمها ثم لم يعمل بها، بل انسلخ منها انسلاخا كاملا، واستحوذ عليه الشيطان، وأصبح من أهل الغي والفساد، ولم يشأ الله تعالى أن يرفعه بالآيات، فكانت حجة عليه، وسببا في زيادة عذابه، ثم بين الله تعالى حبه للدنيا، وتعلقه بها، وإيثاره إياها على الآخرة، فقد أخلد إليها، ولزمها، وتمسك بها، واتبع هواه بدلا من شرع الله تعالى، فهو لاهث لهث الكلب في طلبه للدنيا، فالكلب إن طردته يلهث، وإن تركته يلهث، وهو مثله في لهثه وحرصه على الدنيا، واتباعه الهوى، فإن نصحته ووعظته وذكرته بالآيات التي هو يحفظها ويعلم معانيها، وربما وعظ الناس وذكرهم بها؛ فهو لا ينزجر ويكف عن لهثه واتباعه لهواه، وإن لم تعظه وتزجره؛ فهو في غيه ولهثه المتواصل.

وهذه الآية عامة، فيدخل فيها من تعلم القرآن ولم يعمل به، ولم يجاهد به الكفار والمنافقين، بل حرف النصوص، وتأولها لإرضاء أهل الرياسة والأهواء.

قال القرطبي رحمه الله. :(وهذا المثل في قول كثير من أهل العلم بالتأويل عام في كل من أوتي القرآن فلم يعمل به).

قال الإمام ابن القيم رحمه الله ـ :(فهذا مثل عالم السوء، الذي يعمل بخلاف علمه، وتأمل ما تضمنته هذه الآية من ذمه، وذلك من وجوه؛ أحدها : أنه ضل بعد العلم واختار الكفر على الإيمان عمدا لا جهلا. ثانيها : أنه فارق الإيمان مفارقة من لا يعود إليه أبدا، فإنه انسلخ من الآيات بالجملة كما تنسلخ الحية من قشرها، ولو بقي منها شيء لم ينسلخ منه.

وثالثها : أن الشيطان أدركه ولحقه، بحيث ظفر به وافترسه لهذا قال : " **فأتبعه الشيطان** " ولم يقل تبعه، فإن في معنى أتبعه : أدركه ولحقه، وهو أبلغ من تبعه لفظا ومعنى.

ورابعها : أنه غوى بعد الرشد، والغي الضلال في العلم والقصد، وهو أخص بفساد القصد والعمل، كما أن الضلال أخص بفساد العلم والاعتقاد، فإذا أفرد أحدهما دخل فيه الآخر، وإن اقترنا فالفرق ما ذكر.

وخامسها : أنه سبحانه لم يشأ أن يرفعه بالعلم فكان سبب هلاكه؛ لأنه لم يرفع به فصار وبالا عليه، فلو لم يكن عالما لكان خيرا له وأخف لعذابه.

وسادسها : أنه سبحانه أخبر عن خسة همته، وأنه اختار الأسفل الأدنى على الأشرف الأعلى.

سابعها : أن اختياره للأدنى لم يكن عن خاطر وحديث نفس، ولكنه عن إخلاد إلى الأرض، وميل بكليته إلى ما هناك، وأصل الإخلاد : اللزوم على الدوام.

وثامنها : أنه رغب عن هداه واتبع هواه، فجعل هواه إماما له يقتدي به ويتبعه.

وتاسعها : أنه شبهه بالكلب الذي هو أخس الحيوانات همة، وأسقطها نفسا وأبخلها، وأشدها كلبا، ولهذا سمي كلبا.

وعاشرها : أنه شبه لهثه على الدنيا، وعدم صبره عنها، وجزعه لفقدها، وحرصه على تحصيلها بلهث الكلب في حالتي تركه والحمل عليه بالطرد، وهكذا هذا إن ترك فهو لهثان على الدنيا، وإن وعظ وزجر فهو كذلك، واللهث لا يفارقه في كل حال كلهث الكلب) مختصرا.



الصفة الثانية : موافقة القول العمل

ينبغي لكل ناصح إذا أمر الناس بالبر – ومنه الجهاد في سبيل الله – أن يسابق إليه، وإذا نهاهم عن منكر أن يكون من التاركين له، ولهذا أنكر الله تعالى بصيغة الاستفهام الذي يفيد التوبيخ على من يأمر الناس بالبر وينسى نفسه مع تلاوته للكتاب وعلمه به، فهو لا يخالف عن جهل وقصور في العلم، بل عن معرفة، ودراسة، وتلاوة لكتاب الله، فقال تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ البقرة: ٤٤.

قال القرطبي . رحمه الله . : (عقوبة من كان عالما بالمعروف وبالمنكر وبوجوب القيام بوظيفه كل واحد منهما أشد ممن لم يعلمه، وإنما ذلك لأنه كالمستهين بحرمات الله تعالى ومستخف بأحكامه، وهو ممن لا ينتفع بعلمه).

والآية وإن نزلت في بني إسرائيل، فهي تشمل من تشبه بفعلهم من علماء ودعاة وخطباء المسلمين، الذين دعوا الأمة إلى البر، ومنه الجهاد من خلال الدروس والخطب والكتب، ولكنهم نسوا أنفسهم، فلم يعظوها ويزجروها عن ركونها للدنيا، وتركها للجهاد، مع تلاوتهم الكتاب وعلمهم به، وما تضمنه من وجوب الجهاد، ونصرة الإسلام، وعدم التثاقل إلى الأرض، والركون إلى زينتها، فحالهم ليس كحال الجهال بكتاب الله تعالى، فهم يقدمون على المخالفة، وترك الجهاد مع العلم، ودعوة الناس إلى البر، وأمرهم به، فهو تناقض ينكره الشرع، ويأباه العقل.

قـال الشـوكاني : ("**وأنتم تتلون الكتاب** " جملة حالية مشتملة على أعظم تقريع، وأشد توبيخ، وأبلغ تبكيت، أي كيف تتركون البر الذي تأمرون الناس به، وأنتم من أهل العلم العارفين بقبح هذا الفعل، وشدة الوعيد عليه، كما ترونه في الكتاب الذي تتلونه، والآيات التي تقرؤونها من التوراة؟!

وقوله : " **أفلا تعقلون** " استفهام للإنكار عليهم، والتقريع لهم وهو أشد من الأول، فاستنكر عليهم أولا أمرهم للناس بالبر مع نسيان أنفسهم في ذلك الأمر الذي قاموا به في المجامع، ونادوا به في المجالس إيهاما للناس بأنهم مبلغون عن الله ما تحملوه من حججه، ومبينون لعباده ما أمرهم ببيانه، وموصلون إلى خلقه ما استودعهم وائتمنهم عليه، وهم أترك الناس لذلك، وأبعدهم من نفعه، وأزهدهم فيه، ثم ربط الجملة بجملة أخرى جعلها مبينة لحالهم، وكاشفة لعوارهم، وهاتكة لأستارهم، وهي أنهم فعلوا هذه الفعلة الشنيعة، والخصلة الفظيعة على علم منهم ومعرفة بالكتاب الذي أنزل عليهم وملازمة لتلاوته، وهم مع ذلك كما قال المعري :

وإنما حمّل التوراة قارئها   كسب الفوائد لا حب التلاوات

ثم انتقل معهم من تقريع إلى تقريع، ومن توبيخ إلى توبيخ، فقال : إنكم لو لم تكونوا من أهل العلم، وحملة الحجة، وأهل الدراسة لكتب الله: لكان مجرد كونكم ممن يعقل حائلا بينكم وبين ذلك، ذائدا لكم عنه، زاجرا لكم منه، فكيف أهملتم ما يقتضيه العقل بعد إهمالكم لما يوجبه العلم؟!) مختصرا.

وقال الآلوسي . رحمه الله .:(وإن كان خطابا لبني إسرائيل إلا أنه عام من حيث المعنى لكل واعظ يأمر ولا يأتمر، ويزجر ولا ينزجر، ينادي الناس البدار البدار، ويرضى لنفسه التخلف والبوار، ويدعو الخلق إلى الحق، وينفر عنه، ويطالب العوام بالحقائق، ولا يشم ريحها منه، وهذا هو الذي يبدأ بعذابه قبل عبدة الأوثان، ويعظم ما يلقى لوفور تقصيره يوم لا حاكم إلا الملك الديان).

وقال تعالى : "﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ الصف: ٢ - ٣ فيمقت الله تعالى مقتا كبيرا مِن عبده أن يقول ما لا يفعل، ويدعو الناس إلى العمل بالقرآن، وطاعة الله، والجهاد في سبيل الله، وهو من المقصرين في طاعة الله، ومن القاعدين عن الجهاد في سبيله.

وقد قال رسول الله ﷺ : " مررت ليلة أسري بي على قوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار، قال : قلت : من هؤلاء ؟ قالوا : خطباء أمتك من أهل الدنيا ممن كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم، وهم يتلون الكتاب، أفلا يعقلون " رواه أحمد.

وقال ﷺ : " يؤتى بالرجل يوم القيامة، فيلقى في النار، فتندلق أقتاب بطنه، فيدور بها كما يدور الحمار في الرحى، فيجتمع إليه أهل النار، فيقولون: يا فلان؛ ما لك ؟ ألم تكن تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر؟ فيقول : بلى؛ كنت آمر بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر وآتيه " أخرجه البخاري ومسلم.

وقال ﷺ : " مثل العالم الذي يعلم الناس الخير ولا يعمل به كمثل السراج يضيء للناس ويحرق نفسه " أخرجه الطبراني.

وقال محمد بن كعب القرظي: قال لي عمر بن عبد العزيز وأنا أذكّره :(إن استطعت يا أبا حمزة أن لا يكون أحد أسعد بها نسمع منك فافعل).

وفي هذا قيل :

لا تنه عن خلق وتأتي مثلـه **عار عليك إذا فعلت عظيم**

وابدأ بنفسك فانهها عن غيها **فإذا انتهت عنه فأنت حكيم**

فهناك يقبل ما تقول ويقتدى **بالقول منك وينفع التعليـم**



الصفة الثالثة : خشية الله تعالى.

العلم النافع هو ما أثمر خشية الله تعالى والقيام بحقه، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ فاطر: ٢٧ – ٢٨.

فمن علم بعظمة الله وقدرته على تنوع المخلوقات وأشكالها وألوانها، خافه وخشيه وتجنب مساخطه، وهذا هو العلم النافع الذي أثنى الله تعالى على أهله، وأما مجرد حفظ المتون، ومدارسة العلوم؛ فلا ترقى بصاحبها إلى مرتبة العلماء ورثة الأنبياء، بل هذه العلوم من غير عمل، وجهاد في نصرتها، وتبليغها: تكون وبالا، وحجة على من لم يعمل بها، قال الربيع بن أنس: (من لم يخش الله فليس بعالم)، وقال مجاهد : (إنما العالم من خشي الله عز وجل)، وقال ابن مسعود :(كفى بخشية الله تعالى علما وبالاغترار به جهلا) وقال : (ليس العلم عن كثرة الحديث، ولكن العلم من كثرة الخشية).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : (وكل من خشيه وأطاعه وترك معصيته فهو عالم كما قال تعالى : **" أمّن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه. قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون** "، وقال رجل للشعبي : أيها العالم، فقال : إنما العالم من يخشى الله، وقوله تعالى : " **إنما يخشى الله من عباده العلماء** " يقتضي أن كل من خشي الله فهو عالم، فإنه لا يخشاه إلا عالم).

ومن علامات خشية طالب العلم من الله تعالى : أن يجاهد في سبيل الله بنفسه وماله، قال تعالى : ﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ وقال تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَخۡشَوۡنَ ٱلنَّاسَ كَخَشۡيَةِ ٱللَّهِ أَوۡ أَشَدَّ خَشۡيَةٗۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبۡتَ عَلَيۡنَا ٱلۡقِتَالَ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖۗ قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾

ومن دلائل خشية طالب العلم من الله تعالى : أن يصدع بالحق، وأن يبين أحكام الله، ولا يكتمها لأجل أهواء أهل الرياسة، وخوفا من سطوتهم، كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ﴿٣٩﴾ ﴾

فإذا قعد طالب العلم عن الجهاد، وكتم الحق، ولم يقم بما أوجب الله عليه من نصرة الإسلام: دل ذلك على ضعف خشيته من الله تعالى، وأنه ليس من العلماء ورثة الأنبياء الذين جاءت النصوص الشرعية في مدحهم، والثناء عليهم، وذكر فضائلهم وأجرهم، ووصفهم بخشية الله تعالى.

الصفة الرابعة: تبليغ العلم

إذا حمل طالب العلم ميراث النبوة - وهو علم الكتاب والسنة -: وجب عليه أن يقوم بما قام به النبي ﷺ؛ من تبليغ العلم، وتبيينه للناس، والصدع بكلمة الحق؛ فإن العالم الذي يستغفر له من في السماوات ومن في الأرض: ليس من حفظ المتون، ودرس العلوم، ودرّس بعضها مع تركه لتبيين العلم، وكتمه للحق؛ فهذا يلعنه الله، ويلعنه اللاعنون - كما سوف يأتي بيانه -، وإنما العالم هو من خشي الله تعالى، وقام بما يوجبه حمل العلم من نصرة دين الله، والجهاد في سبيل الله، والصدع بكلمة الحق، فهذا هو الذي يستغفر له من في السماوات، ومن في الأرض، كما قال ﷺ : " من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضىً بما يصنع، وإن العالم ليستغفر له من في السماوات، ومن في الأرض، حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما، إنما ورّثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر " رواه أبو داود والترمذي.

وأما من حمل العلم، ولم يجاهد في نصرته، ولم يبلغه للناس، بل كتمه واشترى بآيات الله ثمنا قليلا؛ فهذا قد سلك طريق اللعنة بدلا من طريق المغفرة، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ البقرة: ١٥٩ - ١٦٠

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ : (أخبر أنهم يلعنهم كل شيء على صنيعهم ذلك، فكما أن العالم يستغفر له كل شيء حتى الحوت في الماء، فهؤلاء بخلاف العلماء، فيلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون). مختصرا.

فإن الكاتم للحق، الذي يحرف النصوص بما تقتضيه رغبات أهل الأهواء، والرئاسة، هو مضاد لله في أمره، وشرعه، وحكمه، مع نسبته للحكم الذي اختلقه وافتراه إلى شرع الله تعالى، ولهذا استحق هذا الوعيد العظيم.

وقوله تعالى :﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ ﴾ يدل على وجوب تبيين ما كتم من الحق مع التوبة، وإصلاح العمل، فلا تكفي التوبة، والاستغفار، والندم دون تبيين الحق الذي كتمه، ولم يبينه للناس.

وقال تعالى :﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٦٩ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ﴾ الأعراف: ١٦٩ - ١٧٠

فهؤلاء الخلف الذين ورثوا الكتاب، وحُمِّلوه، وتعلموه: قد استبدلوا بتبيين الحق وتبليغ الرسالة عرضاً من متاع الدنيا، وهو يشمل الأموال، أو الوظيفة، أو سلامة العيش، أو إرضاء الصليبيين وأهل الرياسة والأهواء والمنافقين، والقبول عندهم، وثناءهم عليهم في وسائل إعلامهم، أو غير ذلك من حظوظ الدنيا الدنيئة، ويسوفون بالتوبة، ويمنون

أنفسهم بالمغفرة، وإذا عرض لهم عارض من متاع الدنيا كالأول عادوا إليه، وكتموا الحق وحرفوه مقابل المتاع الفاني.

وقد أنكر الله تعالى عليهم هذه الفعلة الشنيعة بمخالفتهم ما أخذ الله عليهم في الكتاب من الميثاق بتبيين الحق للناس، فقال تعالى: " أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ "، ومثل هذا قوله تعالى في الآية الأخرى: " ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾ آل عمران: ١٨٧، فهذا الميثاق أخذه الله على أهل العلم بتبيين الحق للناس، وأن لا يكتم منه شيئا، وقد قال ﷺ: " من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار " رواه أبو داود والترمذي.

وهذا الكتم لم يكن عن جهل، بل عن علم ودراسة، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ ﴾، فقد درسوا العلم في المدارس أو في المساجد أو غيرها، وربما أمضوا السنوات في حفظ المتون، ومدارسة العلم، وتصنيف الكتب، فهم قد أقدموا على المخالفة عن علم لا عن جهل، ولهذا يمنون أنفسهم بالمغفرة؛ لعلمهم أن ما ارتكبوه معصية ومخالفة بينة، ثم بين تعالى أن الدار الآخرة خير من متاع الدنيا لمن اتقى الله تعالى، وبلغ ما أوجب الله عليه تبليغه، أفلا يعقل هؤلاء الذين كتموا الحق أن ما عند الله من النعيم المقيم خير من متاع الدنيا الزائل؟!

قال الإمام ابن القيم - رحمه الله -: (كل من آثر الدنيا من أهل العلم واستحبها، فلا بد أن يقول على الله غير الحق في فتواه، وحكمه في خبره وإلزامه؛ لأن

أحكام الرب سبحانه كثيرا ما تأتي على خلاف أغراض الناس، ولا سيما أهل الرياسة، والذين يتبعون الشبهات؛ فإنهم لا تتم لهم أغراضهم إلا بمخالفة الحق، ودفعه كثيرا، فإذا كان العالم والحاكم محبين للرياسة، متبعين للشهوات: لم يتم لهما ذلك إلا بدفع ما يضاده من الحق، ولا سيما إذا قامت له شبهة، فتتفق الشبهة والشهوة، ويثور الهوى، فيخفى الصواب، وينطمس وجه الحق، وإن كان الحق ظاهرا لا خفاء به ولا شبهة فيه: أقدم على مخالفته، وقال: لي مخرج بالتوبة، وفي هؤلاء وأشباههم قال تعالى : " **فخلف من بعهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات** "، وقال تعالى فيهم أيضا : " **فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه، ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله إ لا الحق ودرسوا ما فيه والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون** "، فأخبر سبحانه أنهم أخذوا العرض الأدنى مع علمهم بتحريمه عليهم وقالوا : سيغفر لنا، وإن عرض لهم عرض آخر أخذوه، فهم يصرون على ذلك، وذلك هو الحامل لهم على أن يقولوا على الله غير الحق، فيقولوا : هذا حكمه، وشرعه، ودينه، وهم يعلمون أن دينه وشرعه وحكمه خلاف ذلك، أو لا يعلمون أن ذلك دينه وشرعه وحكمه، فتارة يقولون على الله ما لا يعلمون، وتارة يقولون عليه ما يعلمون بطلانه.

وأما الذين يتقون؛ فيعلمون أن الدار الآخرة خير من الدنيا، فلا يحملهم حب الرياسة والشهوة، على أن يؤثروا الدنيا على الآخرة، وطريق ذلك أن يتمسكوا بالكتاب والسنة ويستعينوا بالصبر والصلاة ويتفكروا في الدنيا وزوالها وخستها، والآخرة وإقبالها ودوامها).

قال سيد قطب . رحمه الله . : " وصفة هذا الخلف الذي جاء بعد ذلك السلف من قوم موسى : أنهم ورثوا الكتاب، ودرسوه، ولكنهم لم يتكيفوا به، ولم تتأثر به قلوبهم ولا سلوكهم، شأن العقيدة حين تتحول إلى ثقافة تدرس، وعلم يحفظ، وكلما رأوا عرضا من أعراض الحياة الدنيا تهافتوا عليه، ثم تأولوا وقالوا : " سيغفر لنا "، وهكذا كلما عرض لهم من أعراض الدنيا تهافتوا عليه من جديد ! ويسأل سؤال استنكار: " ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه " ألم يؤخذ عليهم ميثاق الله في الكتاب ألا يتأولوا، ولا يحتالوا على النصوص، وألا يخبروا عن الله إلا بالحق؟! فما بالهم يقولون : " سيغفر لنا " ويتهافتون على أعراض الحياة الدنيا ! ويبررون لأنفسهم هذا بالتقول على الله وتأكيد غفرانه لهم، وهم يعرفون أن الله يغفر لمن يتوبون حقا، ويقلعون عن المعصية فعلا، وليس هذا حالهم، فهم يعودون كلما رأوا عرضا من أعراض الحياة الدنيا ! وهم درسوا هذا الكتاب، وعرفوا ما فيه ! بلى ! ولكن الدراسة لا تجدي ما لم تخالط القلوب، وكم من دارسين للدين وقلوبهم عنه بعيدة، إنما يدرسونه ليتأولوا ويحتالوا، ويحرفوا الكلم عن مواضعه، ويجدوا المخارج للفتاوى المغرضة التي تنيلهم عرض الحياة الدنيا، وهل آفة الدين إلا الذين يدرسونه دراسة، ولا يأخذونه عقيدة، ولا يتقون الله ولا يرهبونه !؟

" والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون " نعم! إنها الدار الآخرة ! إن وزنها في قلوب الذين يتقون هو وحده الذي يرجح الكفة، وهو وحده الذي يعصم من فتنة العرض الأدنى القريب في هذه الدنيا..). اهـ.

وقال تعالى: ﴿ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ المائدة: ٦٢ - ٦٣، أي : ترى كثيرا منهم يسابقون ويبادرون إلى ارتكاب الآثام والمعاصي، والعدوان على الناس، وأكل أموال الناس بالباطل، لبئس الفعل فعلهم، فهلا كان الربانيون وهم العلماء أصحاب الولايات عليهم، والأحبار وهم العلماء فقط يعظونهم، وينكرون عليهم أفعالهم الشنيعة؟! فلبئس الصنيع صنيعهم في تركهم ما أوجب الله عليهم من الإنكار والتبليغ.

قال الضحاك بن مزاحم في قوله تعالى : " لو لا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت ":(والله ما في القرآن آية أخوف عندي منها).

وقال ابن جرير الطبري:(كان العلماء يقولون : ما في القرآن آية أشد توبيخا للعلماء من هذه الآية، ولا أخوف عليهم منها).

وقال ابن الجوزي:(وهذه الآية من أشد الآيات على تاركي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأن الله تعالى جمع بين فاعل المنكر، وتارك الإنكار في الذم).

فإن المنكرات إذا فشت واستطار شرها بين الناس وأفسد المفسدون. من العصرانيين المنافقين، والعلمانيين المرتدين، من أهل الأهواء والرياسة والإعلام . في الأرض باسم الإصلاح والإصلاحيين، كما قال تعالى عنهم : " وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون. ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون "، وسكت العلماء عن تبيين الحق، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وتركوا أمر الأمة للصليبيين واليهود

والمرتدين والمنافقين؛ فإن نور الحق سوف يخفت، وكلمة الإسلام سوف تضعف، ولا يبقى للناس متكلم في قضاياهم، ولا قائد يقودهم؛ إلا أصحاب الأهواء والشهوات، فيلتبس الحق بالباطل، وتضيع الكلمة الصادقة، وتنطمس معالمها، ويعم الفساد في الأرض ويقل الصلاح فيها.

وفي هذه الفتنة العظيمة التي تقودها الولايات المتحدة لاحتلال بلاد المسلمين، وتغيير دينهم، وفرض فتنة الديموقرطية الكافرة عليهم بقوة السلاح، وبالجيوش الصليبية التي تجتاح العالم الإسلامي؛ كان الواجب على أهل العلم أن يثبتوا على الحق في هذا الابتلاء، وأن يتيقنوا أن هذا الابتلاء من الله تعالى ليميز المجاهدين الصادقين الذين يوالون الله ورسوله والمؤمنين من القاعدين الذين يوالون أعداء الله من النصارى وعملائهم في المنطقة، وقد قال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ التوبة: ١٦، ولكن تساقط بعض المنتسبين إلى العلم في النفاق، وزاغوا عن الجهاد، وعقيدة الولاء والبراء، فقعدوا عن الجهاد، وثبطوا غيرهم، واتخذوا لهم ولائج يلجون إليها ويوالونها؛ كالحكومات العميلة، والنصارى، فقد ولجوا ودخلوا في حملتهم الصليبية، وفي وسائل إعلامهم ليطعنوا في الجهاد والمجاهدين، ويدافعوا عن النصارى، وعملائهم الموالين لهم، فبرروا موالاة الحكومات العميلة، ودعمها للصليبيين ضد الجهاد والمجاهدين، وأباحوا لها سفك دماء المجاهدين تقرباً للنصارى، فهم في الحقيقة موالون للنصارى، بصورة مباشرة أحياناً، وبصورة غير مباشرة في بعض الأحيان، كتأييدهم الحكومات العميلة، وتبريرهم جرائمها، وموالاتها للصليبيين.

قـال العلامـة السـعدي .رحمـه الله .في تفسـيره لهـذه الآيـة : " فشرع الله الجهاد ليحصل به هذا المقصود الأعظم، وهو أن يتميز الصادقون، الذين لا يتحيزون إلا لدين الله، من الكاذبين الذين يزعمون الإيمان، وهم يتخذون الولائج والأولياء من دون الله ورسوله والمؤمنين، " **والله خبير بما تعملون** " أي : بما يصير منكم ويصدر، فيبتليكم بما تظهر به حقيقة ما أنتم عليه، ويجازيكم على أعمالكم خيرها وشرها ".

معوقات عن النفير

الأول : حب الدنيا والركون إليها

من أعظم ما يعيق طالب العلم عن الجهاد : حب الدنيا والميل إليها، فإن الجهاد فيه ترك لكثير من محبوبات النفس، ورغباتها، وقد قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ التوبة: ٣٨ - ٣٩ فهذا التثاقل إلى الأرض وما فيها من شهوات النفس ورغباتها: يدل على الرضا بالحياة الدنيا من الآخرة، ولهذا قال تعالى : " أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ "، وأما الجهاد فهو ترفع على قيود الأرض وشهوتها، ورضا بما عند الله تعالى من الأجر والنعيم المقيم في الآخرة.

وقال تعالى : ﴿ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ التوبة: ٢٤

فتوعد الله تعالى من قدم محبة الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة، والأموال التي حصلها وجمعها، والتجارة التي يخشى كسادها إذا هاجر وجاهد، ومثلها الوظيفة التي يخشى أن يفقدها، و قدم محبة المساكن التي نشأ وتربى فيها، واعتادها

وألفها، ويشق عليه الابتعاد عنها: على محبة الله ورسوله والجهاد في سبيله؛ بالتربص والانتظار للعقوبة، وأن الله تعالى لا يهديه لفسقه بتقديم محبوبات النفس الدنيوية على محبة الله ورسوله والجهاد في سبيله.

فالمحبة الصادقة الكاملة: تتبين في الجهاد في سبيل الله تعالى، الذي جعله الله تعالى فارقا بين الصادقين والكاذبين في دعوى المحبة.

وقال تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ التوبة: ٤١، فأمر الله تعالى عباده بالنفير، سواء خف عليهم النفير أو ثقل.

وقد ذكر القرطبي في الآية عشرة أقوال (الأول : انفروا ثبات سرايا و متفرقين. الثاني : نشاطا وغير نشاط.

الثالث : الخفيف الغني، والثقيل الفقير.

الرابع : الخفيف الشاب، والثقيل الشيخ.

الخامس : مشاغيل وغير مشاغيل.

السادس : الثقيل الذي له عيال، والخفيف الذي لا عيال له.

السابع : الثقيل الذي له ضيعة، والخفيف الذي لا ضيعة له.

الثامن : الخفاف الرجال، والثقال الفرسان.

التاسع : الخفاف الذين يسبقون إلى الحرب كالطليعة وهو مقدم الجيش، والثقال الجيش بأسره.

العاشر : الخفيف الشجاع، والثقيل الجبان) مختصرا.

والآية عامة في وجوب النفير مع الخفة والثقل، فما بقي عذر لمعتذر إلا من عذر الله تعالى.

وقد بين النبي ﷺ داء الأمة؛ وهو حب الدنيا، وكراهية القتال الذي جعل الكافرين يطمعون بخيراتها وأراضيها، ويتسلطون عليها، ويتداعون عليها تداعي الأكلة إلى قصعتها، فقال : " يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها " فقال قائل : ومن قلة نحن يومئذ ؟ قال :" بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن " فقال قائل : يا رسول الله؛ وما الوهن ؟ قال :" حب الدنيا وكراهية الموت ".أخرجه أبو داود، وفي رواية لأحمد :" حبكم الدنيا وكراهيتكم القتال ".

الثاني: أخطاء المربين.

إن التركيز على الدراسة والتعليم والحفظ دون العمل والجهاد: من الأخطاء الكبيرة في التربية والتعليم؛ فهناك فرق كبير في تحقيق كمال التوحيد بين الدراسة وحدها مع القيام ببعض الأعمال دون جهاد، وبين تحقيق التوحيد علما وعملا وجهادا، فطالب العلم إن درس في كتاب التوحيد – على سبيل المثال – قول الله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ التوبة: ٢٤، فلا ينبغي أن يظن أنه قد بلغ المحبة الكاملة لله تعالى، فالدراسة وحدها لا يحصل معها من الكلفة ما يشق على النفس، ويظهر صدقها من كذبها بخلاف التحقيق العلمي والعملي لهذه الآية بتقديم محبة الله ورسوله والجهاد في سبيله على هذه المحبوبات الثمان، فهذا هو البرهان على صدق المحبة وكمالها.

فالصحابة رضي الله عنهم تلقوا هذه الآية مع جميع القرآن، وتعلموا العلم من خلال العمل، والجهاد، والسيرة، والابتلاء، ولم يتلقوا العلم دروسا علمية ليس لها ما يصدقها في الواقع، فعن القاسم بن عوف الشيباني قال : سمعت ابن عمر يقول : (لقد لبثنا برهة من دهر، وأحدنا ليؤتى الإيمان قبل القرآن، تنزل السورة على محمد ﷺ، فنتعلم حلالها، وحرامها، وأمرها، وزاجرها، وما ينبغي أن يوقف عنده منه كما يتعلم أحدكم السورة، ولقد رأيت رجالاً يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان، يقرأ ما بين فاتحته إلى خاتمته، ما يعرف

حلاله ولا حرامه، ولا أمره ولا زاجره، ولا ما ينبغي أن يقف عنده منه، وينثره نثر الدقل)
رواه ابن منده في كتاب الإيمان والطبراني في الأوسط

ومن أخطاء المربين أيضا : دعوة الطلبة إلى التمسك بعلم السلف دون اتباع سيرتهم وجهادهم، وقد يغتر بعض طلبة العلم بهذا الانتساب فيظنون أنهم من أتباع السلف، وهم في سيرتهم وعملهم أقرب إلى علماء اليهود الذين ركنوا إلى الدنيا ومتاعها، وكتموا الحق وبدلوه، واشتروا به ثمنا قليلا، وأمروا الناس بالبر ونسوا أنفسهم.

فالفرقة الناجية المنصورة هي التي كانت على مثل ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم في العلم، والعمل، والجهاد، وتبليغ الحق، والزهد في الدنيا، وقد تقدم بأن من صفات الطائفة الناجية المنصورة : القتالَ في سبيل الله.

ومن أخطاء المربين : النظرة الإقليمية في تقدير المصلحة الشرعية؛ فقد يستشير أحد طلبة العلم معلمه في النفير إلى الجهاد، فيزهده معلمه في الجهاد، ويرغبه في القعود بحجة المصلحة التي بناها على نظرته الإقليمية القاصرة، والحياة التي ألفها.

ومن أخطاء المربين : ترك الجهاد بالنفس، وترك تحريض طلبة العلم على الجهاد، فربما ذكّر المربي طلابه بفضائل الجهاد وأهميته، وأصدر الفتاوى بوجوب الجهاد، ونصرة الإسلام والمسلمين، ولكنه لا يحقق ما يقول في الواقع؛ فلا يجاهد بنفسه، ولا يرسل بعض طلبة العلم الذين تحصل بهم الكفاية إلى أرض الجهاد، ولا يرشد من بقي منهم إلى القيام بتحريض المسلمين على نصرة إخوانهم بالنفس والمال حتى تحصل الكفاية من المجاهدين والأموال.

الثالث: أخطاء في الطلب :

من الأخطاء في الطلب أن يحرص طالب العلم على شغل وقته في طلب العلم، والتكاثر منه، حتى يصبح الطلب همه الأكبر، فيشغله عن الكثير من الطاعات، والقربات، وشعب الإيمان، بل ربما قصر في حسن الخلق، ومعاملة الناس بحجة حفظ الوقت، وأعرض عن الجهاد، وقضايا الأمة، لانشغاله بالطلب والتأصيل، ومع مرور الأوقات، ومضي السنوات، وإعراضه عن كثير من القربات: يضعف إيمانه، وتتزايد أمراض قلبه، وتكثر المعوقات، فلا يسعفه قلبه وقت الحاجة للنفير إلى الجهاد، وتبيين الحق بعد أن حرم قلبه مما به كمال حياته وقوته.

قال الإمام ابن القيم - رحمه الله - في قوله تعالى : " ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر " :

(التكاثر: تفاعل، من الكثرة، أي مكاثرة بعضكم لبعض، وأعرض عن ذكر المُتكاثر به إرادة لإطلاقه، وعمومه، وأن كل ما يكاثر به العبد غيره سوى طاعة الله ورسوله، وما يعود عليه بنفع معاده، فهو داخل في هذا التكاثر : فالتكاثر في كل شيء، من مال، أو جاه، أو رياسة، أو نسوة، أو حديث، أو علم، ولا سيما إذا لم يحتج إليه، والتكاثر في الكتب، والتصانيف، وكثرة المسائل، وتفريعها، وتوليدها، والتكاثر أن يطلب الرجل أن يكون أكثر من غيره، وهذا مذموم إلا فيما يقرب إلى الله، فالتكاثر فيه منافسة في الخيرات ومسابقة إليها).

ومن الأخطاء في الطلب : أن يكون هدف طالب العلم وطريقه في إصلاح الأمة الاقتصار على تأليف بعض الكتب، وتدريس بعض العلم دون أن يجاهد بنفسه وماله ولسانه في نصرة الإسلام، فتأليف الكتب، والتدريس من الفروض التي تحصل فيها الكفاية غالبا، لكثرة من يقوم بها من أهل العلم، بخلاف نفير طلبة العلم إلى أرض الجهاد، فلم تحصل به الكفاية، ولكن الشيطان والهوى يميلان ببعض طلبة العلم إلى غير ذات الشوكة، وإيثار الأسهل، بدلا من مشقة الجهاد، لاسيما إذا كانت الكتب التي يؤلفونها، والدروس التي يلقونها: لا يحصل بها أذى من أهل الأهواء والرياسة.

ومن الأخطاء في الطلب : الانشغال بالتأليف عن الجهاد الواجب، قال إسحاق : سمعت أبا عبد الله ـ يعني الإمام أحمد ـ وسأله قوم من أردبيل، عن رجل يقال له : عبدالرحيم، وضع كتابا، فقال أبو عبد الله : (هل أحد من أصحاب رسول الله فعل ذا، أو أحد من التابعين؟ وأغلظ وشدد في أمره، وقال: انهوا الناس عنه، وعليكم بالحديث).

وقال عبد الله بن أحمد : سمعت أبي وذكر وضع الكتب، فقال : (أكرهها، هذا أبو فلان وضع كتابا، فجاءه أبو فلان فوضع كتابا، وجاء فلان فوضع كتابا، فلا انقضاء له، كلما جاء رجل وضع كتابا، وهذه الكتب وضعها بدعة، كلما جاء رجل وضع كتابا، وترك حديث رسول الله ﷺ).

قال الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ : (وإنما كره أحمد ذلك، ومنع منه؛ لما فيه من الانشغال به، والإعراض عن القرآن والسنة، فإذا كانت الكتب متضمنة لنصر الكتاب

والسنة، والذب عنهما، وإبطال الآراء والمذاهب المخالفة لهما؛ فلا بأس بها، وقد تكون واجبة).

فكتابة الكتب قد تجب في بعض الأحيان، إلا أن قول الإمام أحمد. رحمه الله. يشير إلى حقيقة ينبغي لكل طالب علم أن يقف عندها وأن يتأملها؛ وهي أن سلف الأمة جمعوا بين طلب العلم و تبليغه، والعمل به، والجهاد في سبيل الله، ولم يُعرف عنهم التفرغ للعلم، والانصراف للتأليف والكتابة، وترك الجهاد الواجب، كما هو حال الكثير من الخلف.

ومن الأخطاء في الطلب : أن يظن طالب العلم أن النفير إلى الجهاد يصد عن طلب العلم، والتزود منه، وهذا الخطأ إنما نشأ من عدم إدراكه حقيقة العلم الذي أثنى الله على أهله في كتابه، ووصفهم بالخشية، فالعلم النافع، والفقه في الدين: هو ما أثمر تقوى الله تعالى، وخشيته، والجهاد في سبيله، وبهذه الثمرة، والاستقامة عليها يزداد العبد هداية وعلما، وفقها في الدين والقرآن، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ **قال سفيان بن عيينة لابن المبارك** : (إذا رأيت الناس قد اختلفوا : فعليك بالمجاهدين وأهل الثغور؛ فإن الله تعالى يقول : " لنهدينهم ").

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية . رحمه الله . : (ولهذا كان الجهاد موجبا للهداية التي هي محيطة بأبواب العلم، كما دل عليه قوله تعالى: " والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا "، فجعل لمن جاهد فيه هداية جميع سبله تعالى، ولهذا قال الإمامان عبد الله بن المبارك، وأحمد بن حنبل وغيرهما: إذا اختلف الناس في شيء، فانظروا ماذا عليه أهل الثغور؛ فإن الحق معهم؛ لأن الله يقول : " والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ").

وقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾، والضمير في قوله: " **ليتفقهوا** "، " **ولينذروا** ": عائد على الطائفة النافرة، كما في قول الحسن، ورجحه ابن جرير الطبري فقال: (فإن أولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: لتتفقه الطائفة النافرة، بما تعاين من نصر الله أهل دينه، وأصحاب رسوله على أهل عداوته، والكفر به، فيفقه بذلك من معاينته حقيقة علم أمر الإسلام، وظهوره على الأديان من لم يكن فقهه، " **ولينذروا قومهم** " فيحذروهم أن ينزل بهم من بأس الله، مثل الذي نزل بمن شاهدوا وعاينوا ممن ظفر بهم المسلمون من أهل الشرك إذا هم رجعوا إليهم من غزوهم، " **لعلهم يحذرون** " يقول: لعل قومهم إذا هم حذروهم ما عاينوا من ذلك يحذرون، فيؤمنوا بالله ورسوله حذرا أن ينزل بهم ما نزل بالذين أخبروا خبرهم.

وإنما قلنا: ذلك أولى الأقوال بالصواب، وهو قول الحسن البصري الذي رويناه عنه؛ لأن النفر قد بينا فيما مضى أنه إذا كان مطلقا بغير صلة بشيء أن الأغلب من استعمال العرب إياه في الجهاد والغزو، فإذا كان ذلك هو الأغلب من المعاني فيه وكان – جل ثناؤه – قال: " **فلو لا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين** " علم أن قوله: "**ليتفقهوا** " إنما هو شرط للنفر لا لغيره، إذ كان يليه دون غيره من الكلام.

فإن قال قائل: وما تنكر أن يكون معناه ليتفقه المتخلفون في الدين؟ قيل: ننكر ذلك لاستحالته، وذلك أن نفر الطائفة النافرة لو كان سببا لتفقه المتخلفة وجب أن يكون مقامها معهم سببا لجهلهم وترك التفقه، وقد علمنا أن مقامهم لو أقاموا ولم ينفروا لم يكن سببا لمنعهم من التفقه.

وبعد فإنه قال – جل ثناؤه – : " **ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم** " عطفا على قوله : " **ليتفقهوا في الدين** " ولا شك أن الطائفة النافرة لم ينفروا إلا والإنذار قد تقدم من الله إليها، وللإنذار وخوف الوعيد نفرت، فما وجه إنذار الطائفة المتخلفة الطائفة النافرة وقد تساوتا في المعرفة بإنذار الله إياهما، ولو كانت إحداهما جائز أن توصف بإنذار الأخرى لكان أحقهما بأن توصف به الطائفة النافرة؛ لأنها قد عاينت من قدرة الله ونصرة المؤمنين على أهل الكفر به ما لم تعاين المقيمة، ولكن ذلك إن شاء الله كما قلنا من أنها تنذر من حيها، وقبيلتها، ومن لم يؤمن بالله إذا رجعت إليه أن ينزل به ما أنزل بمن عاينته) ا.هـ.

الرابع: اعتياد الضعف والاستضعاف:

لقد ترك بعض طلبة العلم الجهاد، والإعداد الواجب الذي أمر الله به في قوله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ واعتادوا حياة التنعم والضعف، وقد ظهر جلياً أثر هذا الركون إلى الدنيا، والقعود عن الإعداد في هذه الحملة الصليبية؛ حيث بان عليهم الفزع، واستولى عليهم الخوف من الأعداء، فقابلوا جيوش الأعداء الزاحفة على بلاد المسلمين باللقاءات في القنوات الفضائية، وبالمقالات والفتاوى الضعيفة المهزومة التي جمعت في سطورها الارتباك، والحيرة، والتثبيط، ولو استجاب هؤلاء لفرض الجهاد بالنفس، والمال، واللسان، وحرضوا الأمة على الجهاد، وأعدوا للجهاد عدته: لما وصلوا إلى ما وصلوا إليه من مخالفة القرآن الكريم، والحيرة، والضعف، فهل سيتوبون قبل أن تصل جيوش الصليبيين إلى قراهم؟! أم سيصرون على ضلالهم في أمر الجهاد؟!

فمن أخطر ما يعيق طالب العلم عن الهجرة والجهاد في سبيل الله: اعتياده لحياة الضعف والاستضعاف التي خطها له أصحاب الرياسة، فلا يستطيع الخروج عنها ومخالفتها؛ فقد وضع له أصحاب الأهواء، والرئاسة مجالا محدّدا لا يتجاوزه، ولا يحيد عنه، وإلا فمصيره العقوبة أو التوقيف.

والجبن، أو الوهن، أو الضعف، أو الاستكانة، أو الرضا بالاستضعاف قد تكون في - بعض الأحوال - من كبائر الذنوب، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا

إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ وفي قوله تعالى: " وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ " تحريض وترغيب في الهجرة في سبيل الله، فإن المهاجر من أرض الاستضعاف سوف يجد في هجرته مراغما، وهو الموضع الذي يراغم به الأعداء، ويجاهدهم به بعد أن كان ضعيفا مستضعفا في موطنه، لا يخافه الأعداء لعجزه عن جهادهم، وكذلك يجد السعة وهي الفرج والرَّوح، كالسعة في الرزق، والسعة من ضيق العيش، وتسلط الأعداء، وذلهم، وجوارهم، وسعة الصدر من ضيقه لتعذر القيام بجميع ما أمر الله به من الإيمان، والجهاد، وقول الحق، والسعة في العمل للإسلام، وتبليغه بعيدا عن قيود أصحاب الرياسة والأهواء، وسعة النفس بقوتها، وعزتها بعد ذلها، واستضعافها، وغير ذلك من معاني السعة العامة.

وشاهدُ هذا في الواقع: أن المجاهدين الذين نفروا من أرض الضعف والاستضعاف إلى أرض العزة والجهاد وجدوا المراغم الذي يراغمون به الأعداء، حتى أصبحوا القوة التي تخافها الصليبية العالمية، واليهود، والمرتدون، وغيرهم، وما كان لهذه القلة القليلة من المجاهدين أن تخيف أعداء الإسلام لو رضيت بالهوان، وبحياة الضعف والاستضعاف، ولم تنفر إلى الجهاد في سبيل الله.

إن أرض الجهاد بحاجة إلى نفير طلبة العلم، وهو نفير تحتمه الحرب الصليبية العالمية اليوم، وسوف يجد طالب العلم الحياة الحقيقية في الجهاد، حياة العزة والكرامة، وقد قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) ﴾ الأنفال: ٢٤

قال عروة بن الزبير: (أي للحرب التي أعزكم الله بها بعد الذل، وقواكم بها بعد الضعف، ومنعكم من عدوكم بعد القهر منهم لكم) ، وسيجد طالب العلم الموضع الذي يراغم به الأعداء، وينصر فيه الإسلام والمسلمين، دون قيود أو شروط، بعد أن عاش ردحا من الزمن ضعيفا، مستضعفا، لا يستطيع التغيير في الواقع، ولا الاضطلاع بمسؤوليات كبيرة ورائدة في نصرة الأمة وإصلاحها ومراغمة أعدائها...

أقول لها وقد طارت شعاعا ... من الأبطال: ويحك لن تراعي
فإنك لو سألت بقاء يوم ... على الأجل الذي لك لم تطاعي
فصبرا في مجال الموت صبرا ... فما نيل الخلود بمستطاع
سبيل الموت غاية كل حي ... وداعية أهل الأرض داعي

ومن لم يعتبط يهرم ويسـم وتسلمه المنون إلى انقطـاع

وما للمرء خير في حيـاة إذا ماعد من سقط المتـاع

وسيعرف حق المعرفة بقلبه وبمشاعره آيات الجهاد، ويتفقه بها تفقها عمليا من خلال الجهاد، والاستشهاد، ومن خلال الصبر، والعزة، والتضحيات، " والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ".

وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

كتبه / أبو عمر محمد بن عبد الله السيف